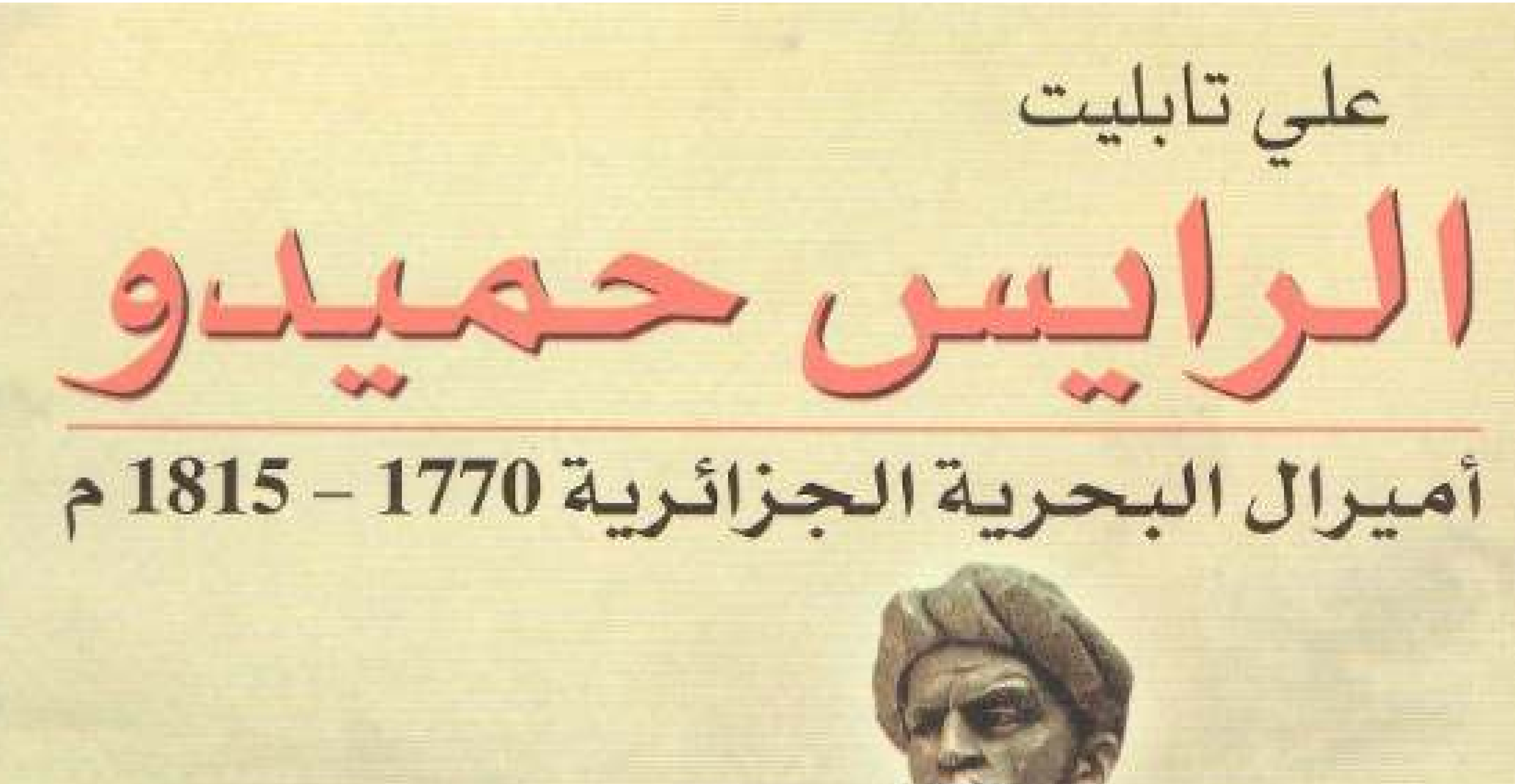


علي تابليت

الرايس حميدو

أميرال البحرية الجزائرية 1770 - 1815 م

THALA EDITIONS

علي تابليت

الرايس حميدو

أميرال البحرية الجزائرية 1770 - 1815 م



الإيداع القانوني: 2006-1032
ر.د.م.ك. : 9961-905-76-8
رقم النشر : 2006-83

أميرال البحرية الجزائرية
الرايس حميدو : 1770م–1815م

إن القرصان الذي اشتهر باسم الرايس حيمدو، كان من أصل جزائري، ولد بالجزائر العاصمة سنة 1770. ولم يكن هناك، بالتأكيد، ما يوحي بأن حياته ستكون مليئة بالمغامرات. فأبوه علي، كان قد هيّأه لممارسة حرفة الخياطة. وما أن بلغ حميدو سن 10 أو 12 من العمر حتى أخذه إلى أشهر مفصّـلي «البذلات» costumiers في الجزائر لتعلّم الحرفة. لكن مُتَمَهِّننا غالبا ما كان يهجر ورشة الخياطة حسب بعض الروايات المنتشرة، ليقصد بعض القراصنة العائدين من الرحلات الخطيرة وللإصغاء إليهم وهم يسردون مغامراتهم. (المخاطر التي واجهوها).

ولمّا كان حميدو يحترق شوقا إلى أن يحذُوَ حذْوَ أولئك الذين كانت مخيِلته الفتية والحاذقة تصورهم له على أنهم أبطال ؛ ونظرا للكره (الشديد) الذي يكنه في صدره إزاء الكفار، وهو الكره الذي كان يعتبر القيمة المحورية للمقاتلين المسلمين ؛ ونظرا لذلك التعطش الشديد للجهاد الذي كان بمثابة الدافع الرئيسي للبحارين الجزائريين، قرّر (حميدو) بكل عزم وثبات هجر مشاهير الخياطة ليشتغل نُوتِيا (بحارا) mousse على متن سفينة أحد القراصنة الذين كان عددهم كثيرا في مدينة الجزائر في تلك الفترة. وكان حميدو يقول إن كل ما يريده من وراء صعوده صواري السفينة هو استرخاء (تنشيط) ركبتيه اللتين أصابهما الفشل بفعل وضعيتهما غير المريحة أثناء قيامه بعمل الخياطة.

وفيما بعد، تلقّى بطلنا التدريب اللازم. ولم يكن يُستثنى الرياسُ والضباطُ من ذلك الجهل الفضيع والمألوف (الروتيني) الذي يميّز البلدان الإسلامية. ولم يكن زادهم من العلم ثقيلا أو مزعجا بل كان في أدنى مستوى. كما لم يكونوا في حاجة – إطلاقا– إلى الإطلاع على الكتب بل وكانوا يتركون، بكل استخفاف، مهمة تعلّم القراءة والكتابة المُملَّةَ لكُتَّابهم (الخوجا). وكانوا يكتفون بمعرفة اتجاه الرياح ونوعها وتحديد موقعهم اعتمادا على «التقدير»، وبعبارة واحدة، امتلاك بعض المفاهيم العملية والأساسية الضرورية التي تساعدهم على ألاَّ يتيهوا في المغامرات بمجرد الابتعاد عن السواحل وتعذّر رؤيتهما. وزيادة على ذلك، لم يكونوا أبدا يبتعدون كثيرا عن اليابسة ولم يخرجوا من البحر الأبيض المتوسط، (بعض الرياس من بينهم حميدو) تجرأوا على القيام برحلة إلى المحيط لكن سرعان ما عادوا إلى المضيق ودخلوا مناطق أكثر معرفة بالنسبة إليهم وسهلة الاستغلال.

قدّر باي وهران الأوّل، جدارة حميدو حق قدرها وتنبأ بالمستقبل المجيد الذي ينتظره. في بداية الأمر، منحه أحد سنابكه، مكافأة له على النّجاح الذي لم تصلنا بشأنه أية رواية على الإطلاق، أسند له فيما بعد رئاسة قيادة قواته البحرية التي كانت تتشكل من اثنين أو ثلاثة سنابك وعدد مماثل من القوارب balancelles.

وذات يوم، وبينما كانت الفرقة الوهرانية المتكونة من ثلاثة سنابك تقتفي آثار الكفار، فوجئت، في مياه جزر الباليار Baleares، بمقابلة سفينتين حربيتين (deux polacres) من جنِوَة. كانت المواجهة غير

متكافئة. ولكن، وبدلا من البحث عن النجاة غير المؤكدّة المتمثلة في الهروب، قام حميدو بمهاجمة العدوّ وأجبر الجنويين على الابتعاد دون أن يحرزوا نصراً كان بإمكانهم تحقيقه بسهولة نظرا لعدم تكافؤ قوات الطرفين. وكان لتلك الحادثة صدى عميق في الغرب. وأصبح يجري الحديث عنها حتى في الجزائر التي كانت، مع ذلك، تزخر بعدد هائل من الرياس المِقدامين والجسورين.

حدث هذا في حوالي 1795. كان الباشا حسن بن حسين يحكم الجزائر آنذاك. وكان قد عمل قرصانا وقتا ما في شبابه، ثم تقلّد مهام «وكيل الحرج» Oukil el Hardj أو وزير للبحرية قبل أن يبلغ قمة هرم السلطة. وكان يقدر كثيرا أهل الشجاعة ويولي البحرية كل الرّعاية.

سارع حسن إلى استقدام حميدو لديه وأسند له قيادة سنبك جميل مسلّح بـ 12 مدفع يركبه قرابة الستين قرصانا من القراصنة المقدامين.

وإدراكا منه للأمل الذي وضع فيه، حقّق الرئيس الشاب اثناء أسفاره الأولى، عددا من الغنائم كانت كفيلة بإثارة البهجة في نفوس المؤمنين وملء جيوبهم بالمال. لكن حدثا أليما جداً كاد أن يُحطّم وإلى الأبد حياة حافلة بالأمجاد بالنسبة للبحرية الجزائرية.

ذات يوم، كان حميدو متواجدا بالقلعة حين اندلعت رياح عاتية في عرض البحر. لم يكن المرفأ جيّداً، وأصيب السنبك المسكين بالتعب الشديد. قام حميدو بكل الأعمال اللازمة لإرساء السنّبك. فربط كوابله كليا بالمرفإِ؛ ثم انتظر الحدث الذي ما فتئ أن وقع : انقطع الكابل الأخير، وحينها حملت العاصفة الهوجاء السنبك الذي راح يرتطم بصخور الشاطئ. الطاقم نجا لكن الرئيس لم يكن مطمئناً لما قد يترتّب على هذه

الكارثة من عواقب ورأى أنه من الحذر بمكان انتظار زوال الغضب الذي قد ينتاب حسن عند تلقيه خبر فقدان سفينته.

وهكذا، سلك حميدو أطول الطريق للعودة إلى الجزائر. قبل ذلك، ذهب إلى تونس ثم إلى قسنطينة حيث مكث بعضا من الوقت. لكن باي هذه المدينة الذي كان، بدون شك، قد أخبر حكومته بوجوده هناك، سرعان ما أبلغ حيمدو بتلقيه الأمر بنقله إلى الجزائر تحت رعاية باش السيار Bach Siar (رئيس البريد) الذي كان يعمل عنده. لكن الباش سيار المذكور كان رجلا قاسي الطبع وشرطيا محنكا تستحيل مخادعته، وخادما طيّعا لا يُمكن إرشاؤه أو إثارة عطفه. حينئذ، أدرك حميدو أنه كان سجينا، وازدادت أسباب مخاوفه بفعل الاحتياطات المتخذه بشأنه.

انطلقت مسيرة القافلة الصغيرة المتكونة من مندوب عن الباي والباش سيار وحميدو ومفرزة من الفرسان العرب، ووصلت إلى مشارف الجزائر.

وتحت أسوار هذه المدينة، بذل حميدو جهدا معتبرا محاولة منه الإفلات من المصير الذي كان يخشاه. لكن يقظة الباش سيّار، الخارقة للعادة، أحبطت هذه المحاولة. كان الرايس حميدو قد خطط للقفز أرضا من على ظهر حصانه لدى مروره أمام المُرابط سيدي عبد القادر، والجري نحو هذا المبنى الديني الذي كان يتمتع بحق اللجوء Le droit d'asile (الحصانة) للاختفاء فيه. قبل الوصول الى المرابط ببضع دقائق، حوّل حميدو وضعيته إلى أحد جانبي الحصان، إذ كان من السهل عليه، وهو في تلك الوضعية، القفز أرضا بكل ارتياح دون أن يتمكن الفرسان من قطع الطريق في وجهه.

لكن صوت الباش سيار جاء كالصاعقة ليقضي فورا على كل أمل في الهروب.

– باللّه، يا سيدي حميدو ! لماذا تريد الإساءة لرجل فقير ؟ أنا مسؤول عليك.

– أنت مخطئ، أجاب حميدو، وسمات الغضب والإحباط بادية على وجهه بعد اكتشاف خطته، لقد تعبْت واردت تغيير وضعيتي لأستريح. أنا بحار ولست متعوداً على امتطاء الحصان مسافات طويلة.

وهكذا، اقتيد حميدو – طوعا أو كرها، أمام الباشا. وإنه لمن اليسير تصورّ المقابلة التي جمعتهما. اهتزت مشاعر المجلس خوفا من غضب الباشا حسن، وأحسّ حميدو بأن رأسه يتأرجح على كتفيه. غير أنه جرى نقاش حول معرفة ما إذا كانت القلعة تتوفر على مرفإ أم لا.

وبأمر من الباشا، أُحضِرت خريطة بحرية. وبعد تفحّصها، تبيّن بوضوح أن القلعة كان يشار إليها بعلامة مرساة، عليه، كان لزاما الاعتراف بأن حميدو كان على صواب لمّا توجّه إليها للإرساء بها. وهُزم الباشا. لكن هذه الهزيمة أزاحت عنه غيظه مما جعله يعفو عن الرايس حميدو.

استعاد حميدو، حينئذ، كل حيويته وكبريائه، وتقدّم نحو الباشا بكل حماس وصاح مبتهجا :

– لا تندم على سنْبكك، يا سيدي، سأُحضِر لك السفن بقدر عدد الألواح الموجودة فيه، والكفّار بقدر عدد مساميره.

كُوفئ، حميدو على هذا التباهي مكافأة معتبرة، وأُسندت له قيادة سنبك جديد. وقام وهو على رأس هذه السفينة، برحلات مثمرة عديدة، حسب ما يقال، لكن لم نتلقى تفاصيل عنها لا عن طريق الوثائق الرسمية ولا عن طريق الرواية.

ومهما يكن، تلقى حميدو قيادة سفينة (غراب La corvette) الباشا بعد عودتها، ذات يوم، بدون راية، الشيء الذي كان يدلّ على فقدان قبطانها. وكانت هذه السفينة في تلك الفترة أكبر سفينة في الأسطول الجزائري. وفي عام 1797، ظهر الرايس ولأوّل مرّة، مع هذه السفينة، في دفتر الغنائم الذي يمسكه خوجة الغنائم Khodja Ghenaim. فالمقال المحرّر بشأنه هو كالآتي.

«غنمت la Corvette سيدنا الباشا بقيادة الرئس حميدو، سفينة جينوية مُحملة بالخزف في 22 محرم 1212هـ / الأثنين 17 جويلية 1797م، وحسب هذا الدفتر، قدُّر إجمالي منتوج الغنيمة بقيمة 000 10 فرنك.

بعد هذه العملية الرائعة، الأولى من نوعها، التي يوجد لها أثر رسمي والتي دفع ثمنها الجنويون Les genois، استخدم حميدو النابوليين Les napolitains والأسبان والبرتغاليين الخ. ويعطينا دفتر الغنائم البيانات التالية :

«غنمت la corvette الرايس حميدو والسنبك الذي يقوده الرايس تشْلْبي Tchelbi، سفينة بندقية Venitien محملة بالملاءات (draps) وسفينة جنوية وسفينتين نابوليتين محملتين بالقمح. وبيعت هذه السفن في تونس من حيث أُرْسِل منتوجها إلى الجزائر. وأُدْرِجَ في هذه الحسابات ثمنُ الكفار المتواجدين على متن هذه السفن والبالغ عددهم 28 فردا. بتاريخ 15 من شهر جمادى الثاني من سنة 1212 هـ (الأربعاء 3 جانفي 1798») ويقدر المنتوج بقيمة 6244 فرنك و 20 سنتيما.

أولا :

استولى الجزائريون على سفينتين فرنسيتين (bâtiments). وتعرض الضباط الفرنسيون للنهب والتنكيل في مرسى تونس، من قبل

قبطان قرصان. وأخيرا استولوا على سفينة نابولية في عرض مياه جزر îles d'hijeres . إن مصطفى قد تصرّف بهذه الكيفية لأنه كان ينفذّ الأوامر الرسمية الصادرة له من الباب العالي الذي اغتاظ كثيرا للحملة الموجهة ضد مصر.

غير أن موقف مصطفى هذا قد تغيّر فيما بعد. والواقع أن جزءا من تموينات حملة مصر كان مسحوبا من إيالة الجزائر. وكان هذا الدين المصدر الجزئي للدين المستحق للتجارة الجزائرية على فرنسا، وهو الدين الذي لعب دورا بارزاً جدا في الأحداث التي وقعت فيما بعد، وهو الذي دفع الفرنسيين، ذات يوم، إلى احتلال الجزائر.

أثار سلوك مصطفى استياء الباب العالي الذي وبّخه توبيخا شديد اللهجة، خاصّة، في 2 فيفري 1081 : «اعلم، يقول القبطان باشا القسطنطيني في كتابه المرسل لمصطفى، إني أصدرت أوامر إلى موانئ الخلافة كافةّ، من أجل طرد كل أعوانكم. كما أصدرت الأمر بعدم تزويد الايالات بأي جندي وعدم السماح لها بالقيام بأي تجنيد ؛ وبأسر كل سفينة تابعة لها قد تظهر في أحد موانئ البحر الأبيض المتوسط وسجن قائدها وطاقمها.

بقي هذا التوبيخ بدون أثر. فيما بعد، شرع بونابرت Bonaparte في التعامل مع داي الجزائر، بعد أن أصبح القنصلُ الأول، وأعاد السلْم بين فرنسا والباب العالي. فوقّعت معاهدة في 7 نيفوز (NIVOSE) من العام العاشر (17 ديسمبر 1801م) بين المكلف بالأعمال ومحافظ العلاقات التجارية للجمهورية الفرنسية وبين مصطفى باشا، وهي المعاهدة التي أكّدت المعاهدات السابقة المتعلقة بالملاحة والتجارة ووضعت الاتفاقيات والنصوص المتعلقة بالامتيازات الممنوحة لشركة

افريقيا، موضع التنفيذ من جديد. وأمرت باستعادة الأشياء المصادرة ما عدا تلك المتعلقة بتصفية الحسابات الخاصة بمؤخرات الديون. وانتشرت سمعة بونابارت في الايالة. واعتاد حميدو، أحد المعجبين بالجنرال المقدام، على القول : «حفظ الله بونابرت ! فكلما واجهته الأمم، كلما هُزمت، وعليه، لن تُفكّر في ازعاجنا».

اغتيل مصطفى باشا عام 1220هـ (1805) بعد حكم دام 8 سنوات، وخلفه في منصبه أحمد باشا.

خلال الثمانية سنوات هذه. حافظ حميدو على قيادة سفينته ette- la corv واستمر ذكره بجانب هذه السفينة في دفتر الغنائم : «غنمت فرقاطة الرايس حاج يعقوب، وسفينة الرايس حميدو وسفينة الرئيس قارة دانقلي Kara Danegli، وسنبك الرايس محمد وعلي وقارب celle- la balan الرايس قُردورلي Kourd Ourli ، على سفينة نابولية محملة ببضائع مختلفة (15 محرم 1213 – جوان 1798). ويقدر المنتوج بقيمة 6798 فرنك.

«غنمت السفن المبينة في المقال السابق سفينتين نابوليتين محملتين بالقمح واللوبيا، والتبغ، ومواد زجاجية، وألواح وأشياء أخرى (2 صفر 1213 – 16 جويلية 1798)». ويقدر المنتوج بقيمة 67470 فرنك و 60 سنتيما.

«كما غنمت السفن المبينة أعلاه سفينة محمّلة بالقمح (20 صفر 1213هـ محملة بالآزر، والطاقيات والجلود والشمع وأشياء أخرى (11 ربيع الأول 1798 – 23 أوت 1798». ويقدر المنتوج بقيمة 30861 فرنك.

«غنمت فرقاطة الحاج يعقوب وسفينة polacre أحمد رايس° وقارة دانقلي، وcorvette الرايس حميدو سفينة يونانية محمّلة بالورق والقمح

والصابون (4 رجب 213 – 12 ديسمبر 1798). ويقدر المنتوج بقيمة 277755 فرنك و60 سنتيما.

نرى هنا أن القراصنة كانوا يهاجمون حتى بواخر اليونان الذي لم يكن آنذاك سوى مقاطعة تركية. فكانوا يتجرأون على التسابق في جلب الغنائم على حساب خدّام سلطانهم. في هذا الشأن، وجهّ الباب العالي توبيخات شديدة اللهجة إلى داي الجزائر وقباطنة بحريته مهدّدا إياهم بمعاملتهم الأعداء إذا ما استمروا على هذا المنوال. غير أن أعمال العصيان السافر هذه قد تضاعفت في ظل سلطة الحاج علي باشا واكتسبت طابع العدوان الحقيقي.

وتعبيرا عن استيائه واستنكاره لهذه الأسباب، صادر الباب العالي فندقا كانت إيالة الجزائر قد قامت ببنائه في سمْيِرْنَا Smyrne لاستعماله كثكنة لاستقبال المتجندين الجدد، ثم سحب كل الحقوق من أعوان هذه الآيالة وأصدر الأمر لأسطوله بمهاجمة السفن الجزائرية وأعدّ العدّة لشن حملة ضد الجزائر.

ولكن، وقبل التنفيذ الكامل لهذه الأوامر وفي 11 من ربيع الثاني 1230هـ. ذُبحَ الحاج علي باشا في حمامات شققه وعوّضَ بالحاج محمد، أمين الخزينة الذي اغتيل بدوره بعد مرور سبعة عشر يوما، وخلفهُ عمر باشا.

سارع عمر باشا إلى إرسال سفير إلى القسطنطينية، وهو الرسول الذي عاد منها حاملا فَرمان Firman (أمر سلطاني) مؤرخ في رمضان 1230 هـ، يعترف لعمر بصفة الباشا.

«يا أيها الأمير، كان يقول السلطان، عينّتك وخولّتك كل السلطات لتَحكُمَ بالاعتدال والحكمة والعدل، ولا تتبّع على الخصوص، اهداء من سبقوك ولا تعتدي على سفن الأمم التي تعيش في كنف السلام مع الباب العالي.

هذه الوصايا موجهة كذلك الى قباطنة السفن وإلى كل الرؤساء. بهذا الثمن، يُنسى الماضي ؛ وسأرضي عنكم جميعا»

ظل الكفار يشكلون على الدوام الفريسة المساغة للقراصنة الجزائريين لم يبق حميدو مكتوف الأيدي خلال حدوث تلك التحولات السياسيّة. ويروي لنا دفتر الغنائم جميع مآثره.

«غنم الرايس حميدو سنبكا نابوليا محملا بالفول وعلى متنه تسعة (9) كفار (5 محرم 1214)». ويقدر المنتوج بقيمة 4326 فرنك و60 سنتيما.

«غنمت سفينة la corvette الرايس حميدو ثلاث سفن نابولية محملة بالملح وعلى متنها 43 كافرا (22 ربيع الثاني 1214هـ – الجمعة 30 أوت 1799 ويقدر المنتوج بقيمة 25468 فرنك و80 سنتيما.

«غنم الرايس حميدو سفينتين نابوليتين محملتين بالملح وعلى متنها 50 كافرا (5 شعبان 1214 – 2 جانفي 1800» ويقدر المنتوج بقيمة 36479 فرنك و40 سنتيما.

«وغنمت la corvette الرايس بن زرمان وla corvette حميدو وسنبك الرايس حسن وBrik الرايس عباس، سفينة نابوليّة محملة بالزين (18 جمادى الثاني – 06 نوفمبر 1800)» ويقدر المنتوج بقيمة 33691 فرنك و80 سنتيما.

ثانيـا :

بعد فترة من الزمن، أسندت لحميدو قيادة سفينة جديرة به كان بناها (صانع سفن) نجّار أسباني المسمى : Maestro Antinio في الجزائر. وكانت هذه الفرقاطة المسلحة بـ 44 مدفع، جميلة وجيّدة ولها أشرعة خفيفة وكانت رائعة في الإبحار لكنها كانت قليلة السرعة. كان الرايس حميدو دائما ميّالا لهذه السفينة ولم يرد أبدا تبديلها بأية سفينة أخري. فبها اكتسب شهرته وأنجز المآثر التي سنَرْويها لاحقا.

أما المايسترو آنطونيو، فقد غادر الجزائر وهو ينعم بالمكافآت والجوائز، بعدما بنى فرقاطة كبيرة أخرى كان الرايس علي طاطار هو أوّل من قادها.

في 20 جانفي 1802، غنمت فرقاطة، الرايس حميدو قاربا barque نابوليا محملا بالزيت وعثِر على متنه على 1000 أوقية بندقية من ذهب (1000 Ecus Siciliens d'or) و21 كافرا. ويقدر المنتوج بقيمة 19592 فرنك و60 سنتميا.

لكن، كفى من الانتصارات الروتينية ومن النجاحات السهلة. فالانتصار الذي يتحقق بدون مخاطرة لا يجلب المجد. ومنذ أن تحصل على الفرقاطة وحميدو يحترق شوقا لإبراز قدرته أمام الكفار على القيام بأشياء أخرى غير عمليات السطو على التجار المسالمين.

وفكّر في غنم سفينة حربية وسرعان ما تكلّلت جرأته بالنجاح إذ عاد الى الجزائر بفرقاطة برتغالية مجهزة ب 44 مدفع.

وفيما يلي البيان المقيّد في دفتر الغنائم، بشأن هذا الموضوع.

«غنمت فرقاطة مولانا (سيدنا) الرايس حميدو سفينة حربية برتغالية مجهزة ب 44 مدفع وأَسْرِ 282 كفارا كانوا على متنها. أُعْطِيَ اثنان من هؤلاء الكفار للبحّار الذي كان الأول من اقتحم السفينة المذكورة. وأقَرَّ سيدنا الباشا هذه الهبِة. وأُعْطِيَ كافرا آخر لسيدي عبد الرحمان. وبقي عدد الكفار 279 أسيرا. أرسل الباشا ثمن هذه الغنيمة بالدُّوبلُون (en Doublons) وبمجرّد وصول هذا المبلغ البحرية (Marine) شرُعِ في توزيعه على الطاقم (25 محرم 1217 – 28 ماي 1802).

هُنا، لم تعرض البضائع للبيع لأن الغنيمة منحت للدولة كاملة. إلا أن الباشا أرسل إلى طاقم الرايس حميدو قيمة الغنيمة لتوزيعها حسب العرف والعادات. وحسب دفتر الغنائم، كان المبلغ الذي أرسله الباشا يقدر ب 103590 فرنك.

من المفهوم أن غنيمة من هذا النوع تكون أثرت في نفوس الجزائريين تأثيرا عميقا. فالروايات الشفوية المتداولة بشأنها تسمح بإتمام الرواية الرسميةَ. وتكون الأحداث قد وقعت على النحو التالي :

«أبحر حميدو في الوقت ذاته الذي أبحرت فيه فرقاطة «الماريكانا» El Marikana، التي كان يقودها الرايس أحمد أزميرلي Ahmed Ezzemirli الذي أصبح فيما بعد أمينا للخزينة. لكن سرعان ما افترقت السفينتان وسلكت كل واحدة طريقها بحثا عن الغنيمة.

بعد إبحار دام بضعة أيام، التقى الرايس حميدو بفرقاطة برتغالية، فوضع مشروعا جزئيا للاستيلاء عليها. وتنفيذا لخطته، استعمل الحيلة، فرفع الراية الإنجليزية. قبلت السفينة البرتغالية هذا التحولّ دون احتراس، مما أثار الإعجاب الكبير بالسلوك الذي تحلّت به الفرقاطة الجزائرية، وتركت

هذه الأخيرة (الفرقاطة الجزائرية) تدخل مياهها بكل طمأنينة، ربما اعتقادا منها أن السفينة الجزائرية تريد إطلاعها على بعض الأشياء. ولمّا تبخّرَ هذا الوهم – كان الوقت قد فات. فكان الاقتحام سريعا وفجائيا. إذْ بعد تصادم السفينيتن، اقتحم الجزائريون السفينة البرتغالية رغم أن هذه الأخيرة كانت مجهزة بالشبكات الواقية (filets d'abordage). وتمكّن هذا العدد الهائل من البحارين المعدّ للمعركة والمدجّج بالأسلحة الذي يحدوه التعصب الشديد والأمل في تحقيق غزوة (غنيمة) لا مثيل لها في سجلّ مآثر الإيالة، تمكّن من الانتصار على مقاومة يئسة لم تتمكن من تجميع قواتها وتنظيم صفوفها بفعل عامل المفاجأة والارتباك الذي وقعت فيه.

كان النصر، إذن، حليف المؤمنين. وبينما كان الرايس حميدو يضع يده على غنيمته الرائعة، وصلت إلى ساحة الحدث سفينة «المريكانا» التي كانت أبحرت معه. إن الرايس أحمد الذي لم يتمكن من المشاركة في المعركة، أراد – على الأقل – كسب المجد عن طريق تبليغ الخبر. وتوجّهَ مُسرعاً، مباشرة إلى الجزائر ليسبق المنتصر والمنهزم.

لم يمض وقت طويل حتى وصلت «المريكانا» قبالة الحي الحربي، وهي تطلق نيران مدافعها من جانبي السفينة محدثة بذلك ضجيجا سرعان ما أصبحت المدينة كلها تروّج له.

وسارع قائد المرسى إلى الاطلاع على أسباب هذا الابتهاج، وبمجرد أن علم بالحدث، سارع الى إخبار الباشا بذلك.

– إذن، ماذا حدث ؟ قال الباشا لقائد المرسى، لاشك أن أحمد قد عاد بغنيمة رائعة ليقوم بمثل هذا الضجيج.

– سيدي (مولاي)، أجاب قائد المرسى، لم يغنم شيئا، ولكنه جاء فقط ليخبر أن الرايس حميدو قد غنم سفينة Corvette بُرتغالية رائعة.

– ها ! ها ! ها ! هذه قصّة فريدة من نوعها، أضاف الباشا مبتسما : حميدو يتزوج وأحمد يريد أن يكون العريس !.

ولما وصل الرايس حميدو، بدوره إلى الجزائر، بلغ جوّ الحماس والبهجة أوجه. استقبل الباشا المنتصر استقبالا رسميا وهنأه علنيا ومنحه الملبس وقلّده الـ Yatagan الشرفي.

تلك هي، تقريبا، الرواية الشفوية المتداولة عن هذا الحديث. ومهما كانت التفاصيل، فالواقعة مؤكدة. زوّدت الفرقاطة المغتنمة بطاقم من المؤمنين وأصبحت تبحر باسم «البرتغيزة» El porteguiza غنمت هذه السفينة عددا معقولا من الكفار لكن حملة Lord Exmouth وضعت حدا لحياتها في الهجوم البريطاني – الهولندي في 27 اوت 1816م.

إن هذه الفرقاطة ليست السفينة الحربية الوحيدة التي غنمها قراصنة الجزائر. وفي هذا الصدد، يشير دفتر الغنائم إلى ما يلي . في 26 أكتوبر، غنم سنبك حربي اسباني على متنه 22 رجل ؛ في 6 سبتمر 1776م، غنم صندل gabarrc اسباني ؛ في 29 نوفمبر 1777م : غنم سفينة حربية نابولية ؛ في 24 اكتوبر 1778م، غنم Andale سفينة حربية يونانية ؛ في 30 أغسطس 1779م، غنم سفينة حربية برتغالية على متنها 100 رجل.

إذا كان يستحسن مزج القليل من المجد برتابة الغزوات اليومية، إلا أنه من الحكمة بمكان التفكير في ضرورات المعيشة وأضحى تجار القنابل (كرات المدافع) في نهاية المطاف، يعرضون أرباحا (منافع) تقلّ عن تلك التي يعرضها التجار العاديون، إن حميدو لم يكن يهمل الحملات

المربحة. وسيمكّننا دفتر الغنائم من إجراء حصيلة للغنائم التي حققها ما بين 1804م و 1805م :

«غنمت فرقاطة سيدنا (مولانا) الرايس حميدو سفينة نابولية محملة بالملح وعثر على متنها زيادة على – 70 كافر – على قنطار و61 رطلا من المرجان وعلى نقود (15 ذي القعدة 1218 – 26 فيفري 1804)». ويقدر المنتوج بقيمة 32863 فرنك و20 سنتيما.

«غنمت فرقاطة الرايس حميدو، رفقة 5 سفن bâtiments، سفينة بيعت في تونس» ويقدر المنتوج بقمية 1776 فرنك.

«أسرِ حمدان وفرقاطة الرايس حميدو و brik الرايس بن زرمان وbrik الرايس لميالي Lamiali و polacre الرايس حسين وسنبك الرايس أحمد وسنبك الرايس علي غَرنَعوط Rarnaout وgoelette الرايس العراش Alarach، وفرقاطة «المريكانا» التي كان يقودها الرايس اسكندريني، 65 كافرا اقتادوهم إلى الجزائر». ويقدر المنتوج بقيمة 23034 فرنك. مما يمنح ثمنا قدره 354 فرنك تقريبا على كل كافر.

«وأسرت فرقاطة الرايس حميدو، وفرقاطة الرايس تشلبي Tchelbi، وفرقاطة الرئيس محمد وعلي، وbrik قارة يوسف، و polacre الرئيس مصطفى، و polacre حسين (Hossaine Rais) رايس، وسنبك الرايس علي طاطار، وسنبك الرايس حمدان وسنبك وزّون محمد رايس Ouzoun Mohamed Rais، 32 كافرا نابوليا واقتادوهم إلى هذه المدينة. 5 شوال 1219هـ /7 جانفي 1805م». ويقدر المنتوج بقيمة 11340 فرنك و60 سنتيما.

«غنمت فرقاطة الرايس حميدو وسنبك مولانا (سيدنا) الذي كان يقوده الرايس حمدان وgoelette أمريكية محملة باللوبيا وعلى متنها 58 كافرا (صفر 1220هـ / 1805م)» ويقدر المنتوج بقيمة 33805 فرنك و 20 سنتيما.

وتميزت هذه السنة 1805 بتغيير الباشا إذ خَلَفَ أحمد مصطفى الذي اغتالته ميليشياته. غير أن هذا التغير لم يأت بجديد بالنسبة لوظيفة الرايس حميدو الذي تواصل ذكره في دفتر الغنائم.

«في 28 من ذي الحجة من سنة 1220 هـ / 19 مارس 1806م غنم الرايس حميدو سفنا برتغالية وهمبورغية» ويقدر المنتوج بقيمة 11594 فرنك و60 سنتيما.

في 1807م، أُرْسِلَ الرايس حميدو، في مهمة إلى Smyrne، وكانت هذه الرحلة مُضِرّة بمصالحه. لكن رئيسِنا كان رجل موارد وكان يجيد استخدام أوقات فراغه كما يمكن استخلاص ذلك في المقالات التالية الواردة في دفتر الغنائم :

«في 28 من شهر رجب من سنة 1220هـ / أول اكتوبر 1807م شاء الله أن يأسر حميدو وهو في طريقه إلى Smyrne، 10 كفار كانوا متوجهين إلى معرض» ويقدر المنتوج بقيمة 5191 فرنك و20 سنتيما.

«غَنِمَ حميدو وهو عائد من Smyrne رفقة وكيل الحرج Oukil El hardj لدى القصر، قارة أحمد باي، على متن سفينة polacre التي كان قد استعملها في رحلته إلى قسنطينة – وبفضل الله، سفينة محملة بالتين. 2 شعبان 1222هـ /5 اكتوبر 1907م.

وما أن عاد إلى الجزائر، حتى عاود الرايس حميدو رحلاته البحرية بانتظام.

ثـالثـا :

تتميّز سنتا 1807 و1808 بمآثر قليلة الأهمية في حياة الرايس حيمدو. وفي هذا الصدد، يذكر لنا دفتر الغنائم البيانات التالية :

«أنعم الله على حميدو بغنيمة برتغالية بيعت في المغرب، 1222 (1807)» ويقدر المنتوج بقيمة 11787 فرنك و60 سنتيما.

«في 29 من ذي القعدة (جانفي 1808) غنمت فرقاطة الرايس حميدو وسنبك حمدان رايس سفينة محمّلة بالبوطاس وكان على متنها 5 كفار». يقدر المنتوج بقيمة 28830 فرنك.

«في شعبان 1223 (اكتوبر 1808) غنم القبطان حميدو سفينتين برتغاليتين محملتين بالقمح والفحم وكان على متنها 74 كفارا» ويقدر المنتوج بقيمة 20485 فرنك و20 سنتيما.

اعتبارا من تلك الفترة، وعلى مدى سنتين تقريبا، لم يعد اسم الرايس حميدو يذكر في دفتر الغنائم. ويستدعي هذا الإغفال إعطاء بعض التوضيحات :

رأينا أن حميدو كان قد ثبّته أحمد باشا في القيادة. لكن، فيما بعد وقعت ثورة انكشارية جديدة أراقت الدماء من جديد، في القصر.

زاد غيظ أحمد باشا وهو يرى المؤامرات تحاك ضدّ سلطته من جميع النواحي ولجأ إلى تنفيذ إعدامات عديدة مما جعله يتصف بالفظاعة أمام أعيْن الناس. ويُزْعم أن أكثر من 900 تركي دفعوا حياتهم ثمن قلّة قناعة الباشا في استقرار حكمه. فثارت المليشيا على هذا السفاح المستبد واغتالته وقطعته إرباً إرْباً.

خلف عليّ أحمد باشا. لكن، بالمقابل، لم يكسب الانكشاريون كثيرا. ولم يكن الباشا الجديد أحسن ممن سبقه إذ حدث له ما حدث لسابقه بعد مرور 4 أشهر من انتخابه.

من الأعمال الأولى التي قام بها الباشا الجديد هو نَفْيُ حميدو الذي ربّما كانت شهرته تُزعجه، رغم أنه لم يكن هناك ما يبرّر خشيته منه كمنافس له على السلطة بما أن الرايس حميدو لم يكن تركيا.

إذن، أُرْسِلَ حميدو إلى المنفى إلى بيروت. لكن سرعان ما استقدم الحاج علي باشا، أمين خزينة الايالة الذي وصل إلى الحكم في 24 محرم 1224هـ / 11 مارس 1809م الرايس حميدو الشهير الذي اكتسبت مآثره البحرية الجزائرية مفخرة لا تُضاهى.

عاود الرايس حميدو قيادة فرقاطته بعد عودته إلى الجزائر، وأسندَ له الباشا فرقة تتكون من أربع سفن ورخّص لها بالإبحار في المحيط.

أبحر الرايس حميدو وشق البحر صحبة فرقته التي كانت متكوّنة مما يأتي : فرقاطة مجهزة بـ 44 مدفع يركبها الرئيس حميدو ؛ وفرقاطة مجهزة بـ 44 مدفع يقودها الرئيس Rarnaout، والفرقاطة البرتغالية المجهزة بـ 44 مدفع التي كان يقودها الرايس أحمد زميرلي، وbrik مجهز بـ 20 مدفع يقوده الرايس مصطفى المالطي.

لما وصل حميدو إلى مضيق جبل طارق، اغتنم فرصة قدوم الليل وهبوب الرياح الشرقي المناسب ليجتازه دون أن تلمحه الأبصار. في هذا البحر (أي المحيط) الذي تتسع فيه الآفاق أكثر من البحر الأبيض المتوسط والذي كان من المفروض أن لا ترتاح له الفرقة الجزائرية، قامت هذه الأخيرة بتحقيق إنجاز رائع إذ غنمت ثلاث سفن برتغالية آخرها brik

الذي كان قادما من هافانا محمّلا بالتبغ وهو الذي حوّل فيما بعد إلى سفينة يستعملها القرصان الجزائري.

بعد هذا الإنجاز الرائع، رأى حميدو أن فترة التبجح قد امتدت إلى ما فيه الكفاية. وشعورا منه بالسعادة والرضى على النتائج الإيجابية التي حققها أثناء رحلته الى المحيط التي استغرقت بضعة أيام، استعدّ الرايس حميدو لعبور المضيق من جديد وكان أرسل الى الجزائر سفينتين من السفن التي غنمها واحتفظ بالثالثة لديه.

اقتربت الفرقة الجزائرية من مدخل المضيق في مطلع النهار بينما كان ريح الشمال يهب بشكل طفيف. ولما دخلت المضيق، شاهدت، عند بزوغ الفجر، أشرعة سفن عديدة على مقربة منها، وسفينتين أو ثلاث سفن كبيرة على مسافة أبعد.

بعد تفحُّصٍ وتمعُّنٍ، تبيّن أن السفن الجزائرية كانت تواجه أسطولا (vaisseau) برتغاليا وثلاث فرقاطات تابعة للبلاد ذاتها، كان يقطع الطريق في وجهها. وعلى الفور اتخذ حميدو بكل عزم وثبات احتياطاته. وأصدر الأوامر لرجاله بواسطة مكبّر للصوت. فوحّدت الفرقاطات الثلاثة صفوفها وتراصت في خطّ سيرها وتقدمت ببسالة نحو أسطول العدو والأشرعة مرتفعة عالية والصائل مائلا على الكوثل (مؤخر السفينة).

«إنْ هاجمنا الأسطول (vaisseau) نقتحِمْهُ جميعا دفعة واحدة».

أما الغنيمة فكانت متجهة نحو جبل طارق بسرّية تامة. لكن عندما كانت الفرقاطات توشك على الالتقاء بالأسطول، غيّرَ هذا الأخير مسلكه وانتهج اتجاها آخر. حينئذ، بلغَ تحدّ حميدو ذروته. فوجّه الأشرعة لتوقيف السفن.

روى فيما بعد، أحد الأعوان بل أحد الجواسيس الذين يعملون لحساب الإيالة في جبل طارق، أن الجمهور الغفير الذي كان يشاهد من بعيد هذا المشهد البحري، قد صفّق كثيرا لتلك المناورة البطولية التي قام بها الرايس حميدو.

ولما أثبت للغير بما فيه الكفاية أن الرايس حميدو لم يكن يتأهّب للفرار، أمر باستئناف الرحلة والصائل مائل دائما على الكوثل (beaupré sur poupe). كان النسيم ضعيفا وانتهى اليوم بإجراء مناورات من كلا الجانبين، وهي المناورات التي جعلت الأسطول الجزائري يكسب مسافات هائلة. وبقدوم الليل. تمكن الأسطول الجزائري الذي ساعده في ذلك هبوب نسيم بارد، من الابتعاد تماما عن أعدائه. وعاد إلى الجزائر حيث أحدثت الرواية المتداولة بشأن هذه الرحلة، صدى عميقا.

رابعا :

لم يتأخر حميدو في تقديم خدمات جديدة بمناسبة اندلاع الحرب بين إيالة الجزائر وإيالة تونس.

في هذا الصدد، يروي لنا دفتر الغنائم ما يلي :

«في 11 رمضان (10 أكتوبر 1810) غنم الرايس حميدو بضائع تونسية تقدر قيمتها بمبلغ 91385 فرنك و40 سنتيما».

«في جمادى الأول من سنة 1226 (من 29 ماي إلى 22 جوان 1811)، غنمت ست سفن حربية يقودها الرايس حميدو بضائع تونسية محملة على متن سفينة بريطانية، تقدر قيمتها بمبلغ 53874 فرنك و60 سنتيما».

في تلك السنة، تميّز حميدو بغنم فرقاطة جديدة، لكن درجة المجد التي بلغها هذه المرّة كانت اقلّ لأن السفينة التي غنمها كانت تابعة للبحرية التونسية. والجميع يعلم أن الجزائريين كانوا يعتبرون أنفسهم متفوّقين كثيرا على التونسيين وكانوا يتعاملون معهم بشيء من الاحتقار.

غير أن المعركة كانت حامية الوطيس إذ استغرقت ست ساعات كاملة حسب الرواية المقيّدة في سجل «التشريفات» Tachrifat.

«في 28 من ربيع الثاني في سنة 1226 (22 ماي 1811) غنم الرايس حميدو وصحبة فرقاطته فرقاطة تونسية واقتادها إلى الجزائر بعد معركة رائعة، كان الأسطول الجزائري يتكون من ست سفن حربية وأربع مدفعيات بينما كان الأسوط التونسي يتكون من 12 سفينة حربية. لكن المعركة وقعت فقط بين فرقاطة الرايس حميدو والفرقاطة التونسية المتعلقة بالأمر. دامت المعركة ست ساعات ولم تنته إلا بعد غروب الشمس.

بلغ عدد القتلى من جانب فرقاطتنا 41 قتيلا، بينما بلغ العدد من جانب الفرقاطة التونسية 230 قتيلا : رحمهم الله جميعا لأننا كلنا مسلمون، وهدانا سواء السبيل (أو أحسن عاقبتنا) آمين.

وحسب المعلومات المستقاة شفويا، يبدو أن قائد الفرقة التونسية، كان متواجدا على متن الفرقاطة المهزومة. وكانت هذه المعركة ناجمة عن تحدٍّ وعن مبارزة بين القائدين كان الأسطولان شاهدين عليها. إن هذه الحادثة تثبت مرّة أخرى أن الإيالتين لم تكونا تعيشان في انسجام جيّد.

بعد انهزام قائده، فرّ الأسطول التونسي أمام الأسطول الجزائري الذي كان يلاحقه، وعاد بكل خجل الى تونس حيث أُقيل قباطنه وشُتموا شتما.

أما الأسطول الجزائري فكانت عودته حافلة بالأمجاد. فنظمت الحفلات والولائم العمومية. وكانت هذه المرّه الثانية التي يأتي فيها حميدو بفرقاطة مهزومة إلى الجزائر. فَحَظيَ البطل الجزائري بترحيب شعبي حارّ وهنأه الباشا علنيا. وتعبيرا عن رضائه، زيّن الباشا عمامة الرئيس المنتصر بزهرة كان يمسكها بيده.

احتفظ الجزائريون بالفرقاطة التونسية التي نجد اسمها مذكورا في وثائق عديدة.

بعد أن ذكرنا بهذا الانتصار الرائع الذي تألّق فيه الرايس حميدو، لِنَعُدْ إلى دفتر الغنائم :

«في 15 جمادى الثاني 1227هـ /6 جويلية 1812م غنمت ثمانية (8) سفن حربية سفينة كبيرة (bâtiment) تابعة لليونانيين الكفار. وكان الرايس حميدو يقود إحدى هذه السفن... الخ. كما غنمت هذه السفن أربعة سفن كبيرة (bâtiments) يونانية محملة بالقمح والخمر وماء الحياة (مشروبات كحولية) والزبيب» ويقدر المنتوج بقيمة 742990 فرنك و20 سنتيما.

«غنمت إحدى عشرة سفينة حربية وست بوارج canonniers مدفعية، و bâteaux goelette المشتركة جميعا من أجل القسمة، قاربا barque صقلياً كان يركبه أربعة كفار، وbrik أمريكيي محمّل بأشياء متنوعة.25 رمضان 1227هـ /3 اكتوبر 1812م. قاد هذه السفن الرايس حميدو و...الخ» يقدر المنتوج بقيمة 43176 فرنك و60 سنتيما.

«في 1229هـ /1814م غنمت ثمانية سفن حربية، شريكة brik، صقليّا محملا بالفخار والحديد، وbrik محملا بالقمح. قاد هذه السفن الرايس حميد، وقبطان و... الخ. ويقدر المنتوج بقيمة 254968 فرنك و20 سنتيما.

«في 20 صفر 1229هـ /11 فيفري 1814م أبحرت ست سفن حربية بحثا عن سفن سويدية ودانماركية، وغنمت ما يلي : brik سويدي وbrik هولندي محمل بالملح وbrik محمل بالملح والقماش وbrik محمل بالملح وسفينة كبيرة (bâtiment) سويدية محملة بدود القزّ والبن (القهوة) والسكر، وسفينة دانماركية محملة بسمك المورة وسفينتين محملتين بالخشب. قاد هذه السفن الرايس حميدو... الخ». ويقدر المنتوج بقيمة 441290 فرنك.

«في 1229، غنمت سفينتان كان يقودهما حميدو وطاطار علي سفينة سويدية محمله بالقماش، وسفينتين هولنديتين محملتين بالملح» ويقدر المنتوج بقيمة 337418 فرنك و40 سنتيما.

«في 15 صفر 1230هـ / جانفي 1815م غنمت خمسة سفن حربية شريكة goelette إسبانية محملة بالكاكاو، وسفينة هولندية محملة بالملح كان يركبها سبعة (7) كفار. قاد هذه السفن الرايس حميدو... الخ.» ويقدر المنتوج بقيمة 94050 فرنك و60 سنتيما.

خامسا :

كانت هذه آخر الغنائم التي جاء بها الرايس حميدو إلى الجزائر. ولم يمض وقت طويل حتى لقيَ مصرعه في هذا البحر الذي جابه مدّة طويلة. لكن هذا الموت كان عظيما وجديرا بالبطل إذ لفظ حميدو أنفاسه

وهو على كرسي القيادة هادئا باسلا تحت نيران مدافع الفرقة الأمريكية التي كانت فاجأته وحاصرته ؛ وهي الفرقة التي وقف لها حميدو النّدّ للندّ بكل شرف رغم عدم تكافؤ قوات الطرفين، الذي لم يكن يترك أي بصيص من الأمل لفكّ الحصار المضروب عليه وللنجاة.

إن هذه الكارثة تستحق قليلا من الشرح. وإنه لمن الأهمية بمكان إلقاء نظرة إلى الماضي لمعرفة طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين الولايات المتحدة الأمريكية وإيّالة الجزائر إلى غاية اللحظة الحاسمة التي انتهت فيها حياة الرايس حميدو الحافلة بالأمجاد والانتصارات.

لاشك أن الرياس الجزائريين يكونون قد ارتبكوا في تحديد جنسية السفينة الأمريكية لما شاهدوا ولأول مرة بمناظرهم. رايتها المخططة بالأحمر والأزرق ذات الركن الأزرق المرصع بالنجوم. لكنهم لم يكونوا من صنف البشر الذين يكترثون لمثل هذه الأشياء التافهة.

فبالنسبة إليهم، كانت هذه الراية توحي بوجود أعداء، إذن، كانت هذه الراية الجديدة والغريبة بمثابة غنيمة جيدة شأنها شأن الغنائم الأخرى.

كان الأمريكيون يتعرضون، في الماضي، لاعتداءات القراصنة الجزائريين بمجرّد دخولهم البحر الأبيض المتوسط. ممّا حملهم على الإقرار بضرورة التفاوض والتعامل مع الرئيس العظيم لهذه الدّولة المتكونة من المؤمنين الأوفياء والنيّرين.

وهكذا، وُقّعت معاهدةٌ في سنة 1795م بين الولايات المتحدة الأمريكية وإيالة الجزائر، يلتزم بمقتضاها الأمريكيون بدفع ضريبة سنوية قدرها 000 12 سلطاني من ذهب أي ما يعادل مبلغ 21.600 دولار«64800 فرنك» وكانت هذه الضريبة تُدفع بدون انقطاع إلى

غاية 1812م. وتوقّف دفْعُها في سنة 1811م، واندلعت الحرب رسمياً بين الدولتين سنة 1812م.

هذه القطيعة أدّت الى إرسال أسطول أمريكي إلى البحر الأبيض المتوسط سنة 1815م. وتشير وثيقة جزائرية إلى نتيجة هذه الحملة على النحو التالي :

«صادفت ثمانية سفن حربية أمريكية فرقاطة وbrik جزائريتين واستولت عليهما. ثم توجهت بهما إلى الجزائر، ولما انتشر خبر هذا الحدث، أبرمت معاهدة السلم. 22 رجب 1230هـ /30 جوان 1815م ».

فوجئ الجزائريون بهذا الحدث. وكان وصول الأسطول الأمريكي غير المرتقب – في الوقت الذي كانت فيه كل سفنهم تجوب البحر – يُعرِّض بحريتهم للخطر بصفة لا مثيل لها. فالأمريكيون وصلوا في الوقت المناسب إذ أن البحرية الجزائرية كانت موزعة في عرض البحر الأبيض المتوسط وبالتالي كانت هذه الأخيرة تحت رحمتهم. ولو أُخْبِرَ الجزائريون بهذا العدوان – وبالتأكيد لو كان القرار صادرا عن قوة أوربيّة لأخبرهم جواسيسهم بذلك – لكانوا، بدون منازع – استقبلوا المعتدين استقبالا مخالفا تماما.

كانت بحرية الجزائريين تتكون آنذاك من 20 سفينة ضخمة منها خمسة فرقاطات (fregates) وعدة Corvettes. وكان بإمكانها التصدي للأمريكيين لو جمعت تحت رعاية أقويائها. إن الفرقة الخفيفة التي يقودها القائد Decatur لم تكن تستطع، في الواقع، تحطيم تحصينات الجزائر عن طريق شن هجوم مباشر لأن Lord Exmouth الذي كان مع ذلك قد فاجأ موقعا مناسبا، احتاج إلى ما لا يقل عن خمسة vaisseaux

منها (2) vaisseaux مجهزان بثلاثة (3) سطوح (pouts) واثنان مجهزان بثمانين (80) مدفع، و ستة (6) فرقاطات مجهزة ب 44 مدفع وخمسة (5) مدفعيات (bombardiers) وستة فرقاطات أو Corvettes هولندية، لتحقيق مثل هذه النتيجة في السنة الموالية.

أما الفرقاطة الجزائرية التي يتكلم عنها السيد شيلر Shaler في روايته وتشير إليها الوثيقة الجزائرية، أي الفرقاطة التي غنمتها فرقة أمريكية على مستوى De Gate، فهي فرقاطة رئيسنا الرايس حميدو أشهر قباطنة الإيالة. ولاشك أن هذا الظرف قد زاد الجزائريين ذعرا. وقد ازداد شعُورهم بالإحباط وخيبة الأمل عند بروز الأسطول الأمديكي غير المنتظر في الأفق ومشاهدتهم أشجع فرقاطاتهم مجرورة من قبل الأعداء المنتصرين.

كانت هذه الفرقاطة المسكينة متأرملة من قائدها عندما ظهرت أمام أعين الجزائريين مهزومةً وأسيرةً بين أيدي الأمريكيين. ولَم يَعُدْ وجودْ للرئيس حميدو.

وقع هذا الحدث في ظل حكم عمر.

في 11 من شهر ربيع الثاني من سنة 1230 هـ / 23 مارس 1815م، ذُبِحَ الباشا الحاج علي في حمامات شققه بعد حكم دام ست (6) سنوات، وعوّضَه الحاج محمد الذي اغتيل بدوره بعد مرور سبعة عشر يوما من تاريخ توليّه السلطة وخلَفَهُ عُمَر، آغا العرب.

كان هذا الباشا سيِّئ الحظ. ففي ظل حكمه حلت المصائب على الجزائر. قُتِلَ حميدو، وأملى الأمريكيون معاهدةَ سلم مهينة على

الجزائريين وأصيبت المدينة بمرض الطاعون وقنبل الإنجليز الجزائر وحطّموا الأسطول الجزائري تحطيما كلياً دون استثناء.

في 23 شوال 1232هـ/ 8 سبتمبر 1817م، بعد سنتين من الحكم، لقي الباشا عمر نفس المصير الذي لقيه سابقوه.

كان الباشا عمر غريب المزاج ومتشدّدا. ذات يوم، استقدم حميدو:

– ما هذا ! قال له ! قدّمت فرقاطة برتغالية لمصطفى وفرقاطة تونسية للحاج علي، أُريد منك أن تاتيَ لي بفرقاطة أمريكية !

– ولكن، آفندي ! أجاب الرايس حميدو، بلاد الأمريكان بعيدة جداً عنّا، لا يمكنني أن أقوم برحلة طويلة من هذا النوع !

– أي فرقاطة !! عقّب عليه الباشا، حاول دائما !.

وأبحر حميدو، طاعة منه للباشا، وبحثا عن غنيمة معتبرة في الوقت ذاته. وكان مرفوقا بـ brik (السفينة) البرتغالية التي حولّها نحو طريق آخر بعد فترة قصيرة من الوقت من إبحاره.

بعد بضعة أيام من الملاحة البحرية، أشار مراقبوا السفينة إلى وجود اسطول قريب منهم قادما من الاتجاه المعاكس. ولما تقلصت المسافة بينهما، أعلن حميدو أن الأسطول الذي يشاهدونه هو أسطول أسباني ولا داعي للخوف، نظرا لمعاهدة السلام المبرمة مع هذه الأمة. أما مساعده، فألحّ عليه الابتعاد عن ذلك الأسطول اعتقادا منه أن السفن كانت أمريكية.

ولم يمض وقت طويل حتى وصل الأسطول المشار إليه إلى مياه الفرقاطة الجزائرية. ولما فات الأوان للفرار، تم التعرّف على راية الولايات المتحدة المرصّعة بالنجوم.

– يا سيدي، كنتُ على صواب، يقول المساعد لحميدو، إنهم أمريكيون !

– كنتُ أعلم ذلك مثلك، يردّ عليه الرايس، لكن لم يكن من الممكن أن أفرّ في خجل أمام العدوّ الذي خرجت لمحاربته !

وبعد أن أمر بالاستعداد للقتال، قال بصفة خاصّة، لضابطه :

– عندما أكون ميّتا، أصدر أوامر بإلقائي في البحر. ولا أريد أن يحصل الكفّار على جثتي.

ولما اقتربت السفن من بعضها البعض، اندلعت معركة غير متكافئة تماما بين مدفعيات الطرفين. لكن أجل الرايس حميدو كان قد حان. فأسقطته الرشقة الأولى التي أطلقها العدو وتركته جثّة هامدة في مركزه القتالي.

وتنفيذا لتعليماته، ألقي بجثّته في البحر.

بعد وفاة الرايس، استمر القتال. لكن الفرقاطة الجزائرية سرعان ما تحولت إلى حطام بعد سقوط صواريها وخرقها بالمدافع وتعطيلها عن العمل ؛ إذ كانت الفرقاطات الأمريكية تمرّ، تباعا، أمامها، وتطلق كل واحدة منها رشقة من مدافعها عليها. وفي الأخير وبعد مرور ساعة من الزمن، قطعت إحدى كرات المدافع قرن صاري مؤخرة الفرقاطة وسقطت الراية في البحر.

وتوقف إطلاق النار.

وتوجّهت القوارب للاستيلاء على السفينة المهزومة.

عند صعوده السفينة، استحضر رئيس التشكيلة (الفرقة) الأمريكية القائد :

– هذا كل ما تبقى من حميدو، يقول القائد، مشيرا الى بركة دموية : «قليل من الدّم».

هكذا، كانت نهاية حميدو البطولية، إن موت العِزّة هذا، قد وفَّر عليه ألم تسليم هذه الفرقاطة للكفار، وهي الفرقاطة التي كان دائما يرفض تبديلها بالفرقاطات التي غنِمها، وجنّبَهُ حزن معايشة تَعرّض بلاده، بعد مرور سنة واحدة، للإذْلال والإهانة.

إنجاز وتصميم منشورات ثالة - الأبيار، الجزائر.
هاتف : 58 36 92/72 17 79 021
فاكس : 72 17 79 021

شهادات عن بطولة حميدو

Tobias Lear (القنصل الأمريكي في الجزائر 1803-1812 والسكرتير الأول للرئيس جورج واشنطن):

"إن الأسطول الجزائري، كان يقوده القبطان الشهير الرايس حميدو، الذي يحمل رتبة أميرال، إنه مقدام، مفعم بالنشاط، قائد مغامر..."

William Shaler (قنصل أمريكي 1815-1828) :

"ارتقى حميدو إلى مركز القيادة بسبب ما كان يتمتع به من الذكاء الحاد والشجاعة الخارقة."

G.J.Jackson (ضابط في البحرية الأمريكية متقاعد وصديق حميدو، كان يعمل تاجرا في المغرب):

"الرايس حميدو، أميرال الجزائر، سقط بشجاعة دفاعا عن سفينته في آخر معركة له مع القائد ستيفن ديكاتور، إنه عربي...قام بأول تجربة له وتعرض للخطر والشدة، اللذان دفعا به إلى البسالة والشجاعة."

Philippo Pananti (كاتب إيطالي أسَره حميدو في 1814 على ظهر السفينة البرتغالية):

"لقد كان لي الشرف أن وقعت أسيرا في أيدي رايس، يسمى حميدو، ولو أن له بشرة داكنة، أو على الأصح ، كانت ملامحه المخيفة وسلوكه يبعثان على الاشمئزاز.ومع ذلك، فإن الحكم في الجزائر لا يتغير تقريبا إذ تمنح القيادة الهامة للانكشاريين، فهذا الشخص وصل إلى رتبة أميرال كبير، على الرغم من أنه جزائري، بل أكثر من ذلك، أنه ينظر إليه بحقارة بسبب عرقه كجزائري.فوصوله للسلطة يرجع إلى الاستحقاق والشهرة، والألقاب التي يحملها جعلته يبقى في السلطة.على الرغم من كثرة الأتراك الذين حاولوا بكل الوسائل أن يحلوا محله، فحميدو يتمتع حقيقة بمواهب وشجاعة...جعلت اسمه في مصاف شخصيات مثل سنان، ودرااقو.."

Albert Devoulx (مؤرخ فرنسي)، لم يعاصر حميدو، بل كتب عنه كتابا قيما سماه" الرايس حميدو" طبع في الجزائر عام 1868:

"فرض شهرته بأعماله المتعددة، واستطاع أن ينتصر على سفن حربية...لم يكن حميدو تركيا ولا كرغليا، بل عربيا من الذين استوطنوا المدينة منذ زمن طويل والذين يطلق عليهم الأهالي تسمية"الحضر."

ر د م ك : 9961-905-76-8